٤ - الفـــارابى

فى العالم الاسلامى وفي أوربا

بمناسبة مرور ألف عام على وفاته

للأستاذ ضياء الدخيلى

هـذا ما نقله فى كتابه الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول ولكنى قرأت فى مفتاح السعادة (ج ١ ص ٢٥٩) ثناء عاطرا على الفارابى إذ قال المولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده (ومن (١) جملة أساتذة الحكمة الفـــارابى الحكيم المشهور صاحب التصانيف فى المنطق والحكمة وغيرها من العلوم وهو أكبر فلاسفة الإسلاميين لم يكن فيهم من بلغ رتبته فى فنونه، وتخرج ابن سينا بكتبه وبعلومه، وانتفع فى تصانيفه. وعدد مصنفاته من الكتب والرسائل سبعون كلها نافعة ولاسيما كتابان فى العلم الإلهى والمدنى لا نظير لهما، أحدهما المعروف (بالسياسة المدنية) والآخر (بالسيرة الفاضلة) وصنف كتابا شريفا فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه أحد، ولا ذهب أحد مذهبه ولا يستغنى عنه أحد من طلاب العلم، وكذا كتابه فى (أغراض أفلاطون وأرسطو) اطلع فيه على أسرار العلوم وبارعها علماً علماً وبين كيف التدرج من بعضها إلى بعض شيئا فشيئا، ثم بدأ بفلسفة أفلاطون بعرف بغرضه منها ثم أتبع ذلك بفلسفة أرسطو ووصف أغراضه فى تواليفه المنطقية والطبيعية فلا أعلم كتابا أجدى على طالب الفلسفة منه) فأين هـذا المديح من ذلك الهجوم القبيح، وكيف اجتمع النقيضان فى صعيد واحد..؟ ولقد أمسى هذا الفيلسوف هدفا للمؤلفين فى كل العصور؛ فأين انتقده القدامى لفساد عقيدته واختلالها (كما يرون) فإن المتأخرين الذين لم يتطبعوا على فهم لغة كتب القدماء الصعبة المسالك الغامضة الأغراض على أبناء العصر الحديث — لم يمنعهم التريث عن التحامل عليه رحمه الله، فقد أخذ المتأخرون يطعنون فى أسلوب الفارابى ويلحقون به مسبة الغموض والاضطراب، وإذا كان بعض هؤلاء النقاد لا يسلم إهابه من وخز البيت القائل:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

فإن الباقين ممن نجل مكانتهم ونعلى شأنهم. ولكنى فى الحقيقة حائر كيف يدعى الكتاب المحدثون فهم كتب ابن سينا والفارابى بلغتها واصطلاحاتها المهجورة؟ وقد كنا معذبين من شيوخ أساتذتنا فى النجف الأشرف فكانوا يقفون عند كل كلمة وينشرون لنا ما فيها من بطون وما علق عليها أصحاب الحواشى والشارحون فإذا عثروا بكلمة (فتأمل) وقفوا عندها وأطالوا البحث شارحين وجه التأمل وقد كان له (بان قلت قلنا) ميدان واسع يجول فى مجاله فرس الشيخ الوقور ويصول، فمن أفهم شباب العصر أسرار (فتأمل) ومن غاص بهم فى أعماق العبارات؟ وهل تقوى عيونهم على قراءة الحواشى الدقيقة الخطوط المتمرجة وحتى على الأخص فى مطبوعات إيران ذات أشكال غريبة؛ فمنها ما نضد ونظم على شكل (الباذنجان) ومنه ما جاء على شكل (أوراق الورد) أما الخطوط فما غرب تعليقات الدارسين فيها فهى تتلوى بين السطور كالأفاعى، فكيف فهم المصريون تلك الكتب الغامضة التى أظن أن المتنبى قصدها بقوله:

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

فكيف فهم الأستاذ إسماعيل مظهر (أسفار ملاصدرا) حتى أخذ يحدثنا فى كتابه (ملقى السبيل) عن أحيلة الملاصدر الدين الشيرازى وأوهامه فى أسفاره ونحن فى النجف الأشرف لا نقرأ كتاب الأسفار إلا بعد أن يدرس الطالب علم المنطق بكتبه القديمة مثل حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب، وشرح الشمسية، وشرح المطالع، وشرح منظومة الشيخ هادى سليله، وشرح منطق إشارات ابن سينا، ثم يقرأ فى علم الكلام شرح التجريد والأصل لنصير الدين الطوسى والشرح لتلميذه العلامة الحلى أو شرح الملا على القوشجى عليه، ويدرس فى الفلسفة شرح إشارات ابن سينا لنصير الدين الطوسى وردوده على (الفاضل الشارح) لفخر الدين الرازى مدافعا عن الشيخ الرئيس و(محاكمات الداماد) الذى أقام نفسه حكما يفصل بين الشارحين، ويدرس

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة للمولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده ج ١ ص ٢٥٩

شرح منظومة السبزواري في الحكمة ، ويدرس الشفاء لابن سينا ثم يدرس بعد كل هذا أسفار الملا صدر الدين الشيرازي ، ونسيت عد الشوارق الملا عبد الرزاق اللاهجي في الكلام. والأغرب من هؤلاء المدعين فهم تلك الكتب الصفراء - ادعاءات المستشرقين الأجانب فهمهم تلك الكتب الوعرة المسالك وكنا لا نتورط في مجاهلها إلا بدلالة من أساتذة بارعين نشأوا وشبوا وشابوا على خوض غمارها ، فكيف تسنى لأمثال (دي بوير) الهولندي أن يفهم مذاهب فلاسفة الإسلام ؟ وكيف تهيأ ذلك وتيسر لجيوم الإسكاتزي وليبنو الإيطالي؟ وكيف ترجم أسلافهم هذه الكتب إلى اللغات الأوربية ؟ إني أكاد أجزم بفساد تلك التراجم وشيوع الأغلاط فيها . وبعد هذا ألا يحق لنا أن نعذر المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق على وصفه الفارابي في ما كتبه بالغموض والاضطراب إذ قال في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وبعد الكندي أبو نصر الفارابي المعلم الثاني المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (والمعروف أن سنة وفاته ٣٢٩ هـ) فعرض لتجديد معنى الفلسفة وعرض للاحاطة بأقسامها وذكر الغاية منها والفرق بين الدين والفلسفة في بيان أفصح وأبسط لكنه فرق هذه الأبحاث في مواضع من كتبه لمناسبات ، ولم يعمد إلى جمعها في نسق ولم تخل أقواله على بسطها من اضطراب وغموض في بعض الأحايين) (١)

ولكن ابن العبري المتوفى سنة ٨٥. هـ وكان قد عاصر وعاشر نصير الدين الطوسي في مراغة قال في تاريخه (٢) (مختصر الدول) يثني على أسلوب الفارابي ويصفه بلطف الإشارة وصحة العبارة إذ ذكر (أن الفارابي استوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفى في أيام المقتدر واستفاد منه وبرز في ذلك على أقرانه وأربى عليهم في التحقيق وأظهر الغوامض المنطقية وكشف سرها وقرب متناولها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وإنحاء التعاليم فجاءت كتبه المنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية — الغاية الكافية والنهاية الفاضلة) فترى ابن العبري لا يجد الغموض

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للاستاذ مصطفى عبد الرازق ص٤٩
(٢) مختصر الدول لابن العبري الطبعة الصرفية

والاضطراب الذين وصم أقوال الفارابي بهما صاحب كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة) بل هو من صنع الزمن ؛ فإن ابن العبري من أبناء القرن السابع الهجري ولغة كتب الفارابي (المعقدة) لغة عصره العلمية — تقريبا تشابه المصريين في لغة التأليف . والحق أنك لتجد كتب المؤرخين طافحة بالإعجاب بفضل الفارابي والإعلاء من مكانته وإن كان إطراء بعض هؤلاء عديم القيمة لجهله الفلسفة فهو بلا ريب مرآة لآراء العارفين . قال ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (وفيها توفي أبو نصر الفارابي الحكيم الفيلسوف صاحب التصانيف فيها (١) وهذا الشيخ زين الدين عمر بن الوردي من القرن الثاني الهجري يقول في تاريخه (ج ١ ص ٢٨٤) عن الفارابي وألف في بغداد معظم تصانيفه ثم دخل مصر ثم دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان فأكرمه وكان على زي الأتراك ، وحضر يوما بدمشق عند سيف الدولة وعنده فضلاؤها فما زال كلام الفارابي يعلو وكلامهم يسفل حتى صمتوا ثم أخذوا يكتبون ما يقول (٢) وقد نقل قصة دخوله على سيف الدولة هذه وكيف أن العلماء أخذوا يتلقفون فرائد كلماته ويسجلونها في دفاترهم (٣) أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (ج٢ ص ٩٩) ولعل هذه الأفسوسة المتواضعة هي أصل تلك القصة الفضفاضة التي تنسب للفارابي البراعة الخارقة في الموسيقى التي استطاع أن يلعب بها بسيف الدولة وندمائه من إضحاك وإبكاء وترقيد ، كل ذلك بسحر الموسيقى . ولعل تلك القصة تتحدث عن موقعة ثانية فقد جمل القصاص مسرحها حلب وهذه وقعت في دمشق . ويختصر (٤) ابن تغري بردي الأتابكي في النجوم الزاهرة (ج ٣ ص ٣٠٤) ويلخص إجلاله للفارابي بأن يقول.. وأبو نصر الفارابي صاحب الفلسفة ، ويحق لأبي نصر أن تعزى إليه الفلسفة فهو من أول بنائها في دنيا الإسلام . أما صلاح الدين بن أيبك الصفدي فيقول عنه في الوافي بالوفيات .. أبو نصر التركي الفارابي الحكيم

(١) الكامل لابن الأثير في حوادث سنة ٣٣٩ هـ
(٢) تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ٢٨٤
(٣) تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٩٩
(٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي الأتابكي ج ٣ ص ٣٠٤

فيلسوف الإسلام وتلاحظ أن المؤرخين تساهلوا تقريبا على أنه تركي غير عربي وإن كان من تلاميذ المدرسة العربية في الفلسفة. وقد جرت تركيته الشعوبيين أن يجدوا فجوة وثغرة لغمز القومية العربية، قال الأستاذ العقاد في كتابه عن (أثر العرب في الحضارة الأوربية) (وقد اتخذ الشعوبيون من كون الفارابي وابن سينا من غير العرب — ذريعة للطعن في الذهنية العربية، وإن من ضروب التجني التي لا تحمد من العلماء أن يقال إن العقل العربي ان يستطيع التفلسف بحال من الأحوال لأن الفارابي وابن سينا كانا من سلالة فارسية (كذا) على أشهر الأقوال ولم يكونا من سلالة عربية أو سامية كأنما كانت للفرس قبل ذلك فلسفة فارسية أو كان لهم عذر كعذر العرب في هجر البحوث الفلسفية طوال العهود التي مرت بهم في الحضارة والعمران؟.. على أن الكندي عربي أصيل وفلاسفة الأندلس كانوا من العرب الخ (٥). ونؤاخذ الأستاذ العقاد على اعتباره الفارابي فارسيا وهو تركي وكم من البون الشاسع بين القوميتين؟ ويقول (٦) عنه جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (ج ٢ ص ٢١٣) وكان فيلسوفا كاملا درس كل ما درسه من العلوم وفاق في كثير منها وخصوصا في المنطق وألف كتبا في مواضيع لم يسبقه أحد إليها ككتابه في (إحصاء العلوم) وكتاب (السياسة المدنية) وهو من قبيل الاقتصاد السياسي الذي يزعم أهل التمدن الحديث أنه من مخترعاتهم وقد كتب فيه الفارابي منذ ألف سنة. وأصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح وملخصها. أوعز إليه بذلك منصور ابن نوح السامانى فأجاب وسمى كتابه (التعليم الثاني) ولذلك سموه المعلم الثاني كما في كشف الظنون (ج ١ ص ٤٤٨) ومن مؤلفاته الباقية إلى الآن نحو (١٢) كتابا في المنطق متفرقة في مكاتب أوربا، بعضها منقول إلى اللاتينية أو العبرانية أكثرها في الأسكوريال، وبعض الترجمات اللاتينية مطبوع في البندقية وغيرها الخ. وقد طعن العقاد فيما يدعيه بعض المؤرخين من هذه الصلة بين الفارابي ومنصور بن نوح الذي يرى العقاد أنه صار ملكا بعد موت الفارابي بإحدى عشرة سنة كما تقدم. أما تلقيبه

(٥) أثر العرب في الحضارة الأوربية للعقاد ص ٩١
(٦) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٢ ص ٢١٣

بالمعلم الثاني فإن دي بور De Boer في كتابه في (تاريخ الفلسفة الإسلامية) يرى له وجها آخر إذ قال (٧) ولم يتعين حتى الآن الترتيب التاريخي لمؤلفات الفارابي، وإذا صح له أن رسائل صغيرة نحى فيها منحى المتكلمين والفلاسفة الطبيعيين، وإذا صح أنها كانت على هذه الصورة التي انتهت إلينا فهي مؤلفات كتبها للجمهور أيام صباه؛ فلما أوغل في الدرس انتقل إلى دراسة مؤلفات أرسطو ولهذا سماه أهل الشرق المعلم الثاني، فهو إذن قد اكتسب هذا اللقب الجليل بشروحه لمؤلفات المعلم الأول

ويقول (٨) العقاد في رسالته عن الفارابي.. ومهما يكن من شيء فإن عناية الفارابي بالمنطق واهتمامه بشرح آراء المعلم الأول وبيان فلسفته وتقريب فهمه إلى معاصريه جعل له عند العرب مكانة لا تدانى حتى أنهم لقبوه بالمعلم الثاني. وقد فهم (هامر hammer خطأ أن الفارابي سمي بالمعلم الثاني لأنه كان ثاني فلاسفة المسلمين، الميرزين؛ ونحن نجد هذه التسمية لأول مرة عند البيهقي ثم نجدها بعد ذلك عند الشهرزوري. وقد ذهب طاشكبري زاده وحاج خليفة إلى أن لهذه التسمية سببا هو أن الفارابي صنف كتابا سماه (التعليم الثاني) هذب فيه وصحح ما ترجمه الأوائل من كتب المعلم الأول الخ.. ومهما تعددت الروايات في سبب تسمية الفارابي (والأصح تلقيبه) بالمعلم الثاني فإنها جميعا تتلاقى في الدلالة على ما كان له من عظيم القدر ورفيع المكانة

البحث صلة

ضياء الرفيلي

(٧) تاريخ الفلسفة الإسلامية لدي بور من جامعة أمستردام في هولنده
(٨) رسالة العقاد عن الفارابي من سلسلة أعلام الإسلام

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحي الرسالة
فصول في الأدب والنقد والسياسة
والاجتماع والقصص
للأستاذ احمد حسن الزيات